الفصل الثامن

الإسلام ... ومكانة المرأة الاقتصادية وحقها في العمل

منـذ أخذت التشريعـات الإلهية الخاصـة بالمرأة تترى وهي تـرفع في منزلتهـا ، وتغلي قـدرها ، وتعـزز مكـانتها ، في كل مجال من مجالات الحيـاة المعـاشة على وجـه الأرض . وإذا كان العلماء والمفكرون والمؤرخـون الذين كتبوا حول مكـانة المرأة في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام قد اتفقوا أو اختلفوا حول مكانة المرأة الاقتصادية ، بحيث أن بعضهم قال بأنها كانت تمتلك حرية التصرف في مالها ، وأنها كانت مالكة لقرارها في هذا الجانب ، وإن كان من فعلن ذلك من النسـاء محدودات ، بينما قالت الغالبية العظمى من العلماء والمفكـرين والمؤرخين بـأن المرأة لم تكن تمتلك حـريـة التصرف في مالها ، أو ممتلكـاتها ، بل إنها هي نفسها كانت سلعة تـورث . . وتباع . . وتشترى . . وتنتقل ملكيتها (!!) من رجل إلى رجل ، ومن قبيلة إلى أخرى .

نقول إذا كان هـذا هو الوضع في شبه الجزيرة العربيـة قبل الإسلام ، إلا أنه مع بزوغ فجر الإسلام ، وسطوع شمسه على هذا الركن من العالم بدأ وضع المرأة ومكانتها الاقتصادية يتغيران من النقيض إلى النقيض . وكما سبق القـول في أكثر من موضع في صفحات هـذه الدراسـة فإن ذلك التغيير الذي حدث لـوضع ومكانـة المرأة جاء من فـوق سبع سمٰـوات ، أي من اللـه عـز وجـل ، ولقـد تقبلـه المجتمع المسلم آنـذاك بالتسليم والطـاعة ، ومن ثم ثبت التغيير في نفـوس الصحابة وسلـوكياتهم ، ولم يجد مقاومة منهم أو معارضة كما هي العادة في القوانين والتشريعات البشرية التي عادة ما تكون ناقصة ، وعـادة ما تكون لحساب طائفة على حساب طـائفة أخرى ، ولسنا في حاجة للتذكير بمثال تشريعات منع تعاطـي الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية ، ولعلنا بعـد هذه المقـدمة البسيطـة نقوم سويـا لنستعرض مـا مس مكانـة المرأة المسلة الاقتصادية في ظل الإسلام العظيم .

١- مساواة كاملة بينها وبين الرجل في شؤون الاقتصاد:

حيث قرر لها الإسلام هذه المساواة ، ولها أن تتصرف في أموالها وممتلكاتها بكل حرية ، ولا وصاية لأحد عليها مهما كان ، فلها أن تتبرع من أموالها ، وأن تتصدق منها ، كما أن لها أن تسدد منها الديون ، وأن توقف منها ما تشاء ، وأن تبيع وتشتري ما تشاء ، وتكفل من تشاء ، وهي في هذا تماثل الرجل تماما ولا اختلاف بينهما على الإطلاق .[١]

ويقول رشيد رضا لقد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك ، أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن ، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن ، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه ، والتصرف بأنواعه المشروعة ، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال ، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية ، وأعطاها حق البيع والشراء والإجازة والهبة والصدقة وغير ذلك من الأعمال المشروعة[٢] .

ويتحدث الكاتب السابق عن قضية المساواة بين المرأة والرجل ، والتي نحن بصددها فيؤكد أن الإصلاح الأكبر الذي جاء به الإسلام ، ونزل به القرآن في شأن النساء هو ما ورد في الآية القرآنية « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» (البقرة/ ٢٢٨) إذ أن هذه كلمة جليلة جداً ، جمعت على إيجازها ما لايؤدي بالتفصيل إلا في سفر كبير ، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق إلا أمرا واحدا عبر عنه بقوله (وللرجال عليهن درجه) . وهذه الدرجة مفسرة بقوله تعالى « الرجال قوامون على النساء » (النساء / ٣٤)[٣] .

(١) وهبي سليمان غاوجي الألباني، مرجع سابق، ص ص ٤٦-٤٧ .
(٢) محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص٢٠ .
(٣) المرجع السابق، ص ٣٠ .

وتضيف كوثر الميناوي إلى ما سبق من حرية المرأة الاقتصادية أن الإسلام أقر لها - أي للمرأة - أن تمارس التجارة ، وسائر أسباب الكسب المباح ، كما أن لها أن تضمن من تشاء ، ويضمنها غيرها ، ولها أن توصي لمن تشاء من غير ورثتها ، ولها أن تخاصم غيرها إلى القضاء استحصالا للحق ودفعا للضرر . للمرأة كل ذلك من غير إشراف زوجها ، ولا إشراف وليها ، ما دام ذلك لا يتنافي مع التعاليم الشرعية ، ولا يتعارض مع وظيفتها الأساسية وهي الزوجية والأمومة .(١)

٢- وصارت وارثة بعد أن كانت موروثة :

حيث أثبت الإسلام تقديره للمرأة ، ورعايته لحقوقها ، بإعطائها حق الميراث*

خلافا لما كان عليه عرب الجاهلية ، وكثير من الشعوب القديمة ، وبعض الشعوب في العصر الحاضر.(٢)

ويقارن الشيخ محمد قطب بين ما أعطاه الإسلام للمرأة ، وما أقره لها من حق في الميراث ، وبين ما كان يجري في الحضارة الغربية إلى عهد قريب جداً .

وجاء الإسلام يعطيها - إلى جانب المساواة في الإنسانية ، والمساواة عند الله - حق الملك والتصرف : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن» ... وهذا الحق - يقول الشيخ - لم تعطه فرنسا لنسائها إلا في القرن العشرين .... وحقا جاء الإسلام يعطي كل ذي حق حقه ، وإنسانيته المجردة ، دون أن يكون صاحب قوة أو نفوذ أو سلطان ...(٣).

(١) كوثر محمد الميناوي ، مرجع سابق، ص٣٦ .

★ لن ندخل في تفصيلات نصيبها من الميراث هنا، حيث أنه مشروح ومفصل في كتب الفقه الإسلامي، ولكن مايهمنا هنا هو إثبات المبدأ ذاته ، أي مبدأ الميراث والذي لم يكن موجوداً للمرأة قبل الإسلام.

(٢) مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٣٣ .

(٣) محمد قطب: معركة التقاليد، دار الشروق، القاهرة، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ٩٠ .

وعمـوما فإن المرأة الأوروبيـة ظلت أكثـر من اثني عشر قـرنـا بعد الإسـلام لا تملك من الحقوق مـا أعطاه الإسلام للمـرأة المسلمة . ثم هي حين ملكتها لم تأخـذها سهلة ، ولا احتفظت بـأخلاقها وعـرضها وكـرامتها ، وإنما احتاجـت لأن تبذل كل ذلك ، وتتحمل العـرق والدمـاء والدمـوع ، لتحصل على شيء مما منحـه الإسلام – كعادته – تطوعا أو إنشاء ، لا خضوعـا لضرورة إقتصادية ، ولا إذعانا للصراع الدائر بين البشر، ولكن تقريـرا منه للحق والعدل الأزليين ، وتطبيقـا لهما في واقع الأمر ، لا في عالم المثل والأحلام .[1]

ولخص العقـاد – رحمه اللـه – المكـانـة الجديـدة التي تسنمتهـا المرأة – بفضل الإسـلام – في كلمات مختصرات مـوجزات ، ولكنهـن دالات ، قال : كـانت متـاعـا يـورث ، ويقسم تقسيم السـوائم بين الـوارثين ، فـأصبحت بفضل الإسـلام ونبيـه صاحبة حق مشروع ، ترث وتورّث ، ولا يمنعها الزوج من أن تتصرف بمالها ، وهي في عصمته كما تشاء . . .[2] وكذلك « أباح لها الدين أن تكسب كما يكسب الرجال : « للرجـال نصيب مما اكتسبوا ، وللنسـاء نصيب مما اكتسبن ، ولم يفضل الـرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها وإقامة أودها والسهر عليها» .[3]

إن الدين الإسلامـي الرائع ما ترك شيئا أو أمـراً يعمل على ثبات المجتمع وعلى استقـراره وتقـدمه إلا وفـرضـه على النـاس ، وهو قـد عنى بتنظيم الصلـة بين أفـراد المجتمع ككل ، كما عني بتنظيم الصلـة بين الجنسين ، طرفـا المعادلـة في الحياة ، في كل أحوالها وأطـوارها ، ومـا يشتركان فيـه ، وما ينفـرد به كل منهم ، كما يقـول شهيد الإسلام سيد قطب ، رحمه الله ، وذلك وفقـا لتكوينه الفطري ، ووظيفته في المجتمع

(١) محمد قطب : شبهات حول الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، ص ١١٣ .
(٢)عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، مرجع سابق، ص ١٣٩ .
(٣) المرجع السابق، ص ١٤٣ .

الإنساني القائم عليهما كليهما .[1]

وفي الجانب الاقتصادي ، والمكانة الاقتصادية للمرأة التي نحن بصددها هنا ، نجد أن الإسلام العظيم قد بيّن حقها معا - في أصل الملكية والكسب والميراث مع خصوصية كل منها في بعض الفروع ، وذلك للقضاء على جميع النظريات والأنظمة الخاطئة التي كانت تحرم المرأة حقها :

« **للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن**» (النساء/ ٣٢) .

« **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر ، نصيبا مفروضاً** » (النساء / ٧) .

« **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** » . (النساء / ١١) .

« **ولأبويه لكل واحد مهما السدس مما ترك ، إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد ، وورثة أبواه فلأمه السدس** » . (النساء/ ١١) .

« **وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس** » (النساء / ١٢) .

« **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا** . »(النساء / ٤)[2] .

والمرأه لا تورث ، كالمتاع ، ولا تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها لتفتدي نفسها من أهل زوجها ، ولا تمسك بعد الطلاق جزاء حتى تفتدي نفسها من الزوج ، كما كان الحال في الجاهلية :

« **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا**

(١) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة، مرجع سابق، ص ٦٦ .
(٢) المرجع السابق، ص ٦٧ .

ببعض ما آتيتموهن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبيناً . » (النساء / ١٩-٢٠) .

وللرجل القوامة في البيت ، وعليه الإنفاق ، وله مزاولة حقوق القوامة في المحافظة على كيان الأسرة من التفكك في مهب النزوات العارضة ، والمحافظة على العش الذي تتعلق به حقوق الأطفال ، وحقوق المجتمع البشري الذي يعتمد على مؤسسة الأسرة في نموه الاجتماعي ورقيه .

« الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » (النساء / ٣٤)[1] .

٣- وأعطاها دين الحضارة الحق في العمل :

لأنه دين يرفع من قيمة الإنسان ، ولأنه يريد من هذا الإنسان أن يستثمر وأن يستفيد من كل ما سخره الله له في الأرض ، ومن كل طاقاته العقلية والنفسية . . . بل والروحية كذلك .

والإسلام يحب لأهله أن يحيوا كأقوى ما تكون الحياة ، وأن يناضلوا كأشد ما يكون النضال ، وأن يكون لهم في كل ميدان جهاد ، وفي كل مجال عمل ، حتى تتحقق لهم السيادة ، والقيادة عن جدارة واستحقاق .[2]

وأسلوب الإسلام في الدعوة إلى العمل أسلوب متميز ، لا يكاد يضاهيه ، أو يقاربه ، أي أسلوب آخر .

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٨ .

(٢) السيد سابق، مرجع سابق ، ص ١٦٢ .

فغـايـــة الحيـاة في نظـر الإســـلام هي إحســان العمل ، وإتقـــانــه ، وإظهارالمواهب، وإبراز القوي الكامنة في النفس الإنسانية .

« تبـارك الذي بيـده الملك وهـو على كل شيء قـدير . الـذي خلق الموت والحيـاة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » (الملك / ١-٢) .

« إنا جعلنا مـا على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا . وإنـا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا (الكهف / ٧-٨) .

« وهـو الـذي خلق السمـوات والأرض في ستـة أيـام ، وكـان عـرشـه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» . (هود/ ٧) .

ولقـد قال رسـول الله ، صلى اللـه عليـه وسلم ، لابنته فـاطمة ، رضى اللـه عنها : « اعملي يافاطمة ، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » .

ويبين الشيخ نـوع العمل الذي يحبـه الإسـلام ، ويدعـو المسلمين له فهـو : العمل الصـالح الذي تـزكو بـه النفس ، وتقوَّم بـه الأخلاق ، وتتسع بـه دائرة البر ، وتقـوى بـه العـلاقـات الإنسـانيـة ، وتصـان بـه الأديـان ، والأبـدان ، والأعـراض والأمـوال، والقلـوب والعقول . إنـه العمل الـذي ينمي الإنتـاج ، ويزيـد الثـروة ، ويحفظ كرامات الأفراد ، ويصل بالأمة إلى غايتها من السيادة والمجادة .[1]

ولقد ربي الـرسول ، صلى الله عليه وسلـم ، الصحابة على أن يكونـوا مجتمعا عامـلاً من الدرجة الأولى ، وذلك منـذ اللحظة الأولى التي وضعوا فيهـا أقدامهم في المدينة المنورة ، حين أقاموا أول مسجـد في الإسلام . . . ولقد عمل المسلمون في بناء المسجد بهمـة وحماس عظيمين ، خاصة وقد كـان الرسول ، صلى اللـه عليه وسلم ، يعمل معهم ، ضـاربا لهم القـدوة والمثل والنموذج الـذي اقتدوا بـه . كما كان حـاله

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٦ .

دائما في كل ما كان يأمرهم به .[1]

ويذكر تاريخ الدعوة الإسلامية أن مجتمع المسلمين الأوائل كان مجتمعا عاملاً نشيطا مجدا مجتهدا ومتقنا حتى إن أفراده بنوا حضارة من أسرع الحضارات نموا في التاريخ البشري . *

وما كان لهذا المجتمع أن يقوم بكل ذلك من خلال عمل الرجل وحده ، وإنما أباح الإسلام للمرأة أن تسهم فيه بنصيب يتناسب مع قدرتها وكفاءتها ، وبالشكل الذي يحفظ عليها كرامتها ، هذا ولقد ولي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، سيدة تدعى « الشفاء » أمر سوق المدينة ، وكانت امرأة تجيد الكتابة ، وذلك كما يقول الشيخ الغزالي ، رحمه الله .[2] كذلك أستأذنت امرأة من الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، في أن تخرج لجذاذ النخل ، فأذن لها .[3]

أما« المعلمي » فيمس موضوع عمل المرأة على أساس أنه واجب عليها ، وهو حق لها في الوقت نفسه « إن قيام المرأة على شؤون بيتها ، وتدبير أمور منزلها وتربية أبنائها ورعايتهم يعد من الأعمال الواجبة على المرأة .

وجهد المرأة في عمل شريف من أجل كسب عيشها حق لها ، أما أداء المرأة لعمل من الأعمال الضرورية للنساء كالتطبيب والتوليد فهو فرض كفاية يجب على المرأة القيام به .

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : التربية وكارثة غزو الكويت ، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١١هـ - ١٩٩١م

★ سبق وأن مسسنا جانب العمل هذا في الفصل الرابع، تحت البند خامسا، بعنوان: وأعطاه فأسا ليحتطب، وذلك لمن أراد أن يرجع إليه .

(٢) محمد الغزالي : الإسلام والطاقات المعطلة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م .

(٣) عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص ٢٦٤، ويراجع في هذا أيضاً كتاب إبراهيم بن محمد الجويز: عمل المرأة في المنزل وخارجه، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص ٧٢ .

المهم أن المرأة يمكنهـا أن تقـوم بما سبق من أعمال متصلـة بشـؤون النسـاء كـالتعليم والطب والتمـريض والتـوليـد والتقيين *، ثم يلى ذلك -عنـد الاضطـرار- الاشتغال بـالبيع والشراء والاحتطاب والاستقاء وجنى الثمار وحصـد الزرع وغيره من الأعمال التي هي في الأصل من أعمال الـرجال ، ولا تمارسهـا النساء إلا لـلاضطرار ، وعند عدم وجود من يقوم بذلك عنهن .[1]

هـذا ولقد دلنـا القـرآن الكـريم على ابنتي نبي الله شعيـب ، عليه السـلام ، واللتين كانتا تـزاولان العمل حين ورد موسى ، عليه السلام ، مـاء مدين : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من النـاس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ، قـالتا لا نسقي حتى يصـدر الرعـاء ، وأبونـا شيخ كبير ، فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظـل فقال رب إني لما أنزلـت إلى من خير فقير ، فجاءتـه إحداهما تمشي على استحياء قـالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجـر ما سقيت لنا ، فلما جـاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . (القصص/ ٢٣-٢٥) .

ويحث الـدواليبي المرأة على الموازنـة بين العمل المشروع غير الملـزمـة بـه وبين واجب الأمـومة والـرعايـة لبيتهـا « إن للمرأة الحق الكـامل في العمل المشروع إذا هي أرادته ، وذلك على الـرغم من أنها قد أعفيت من أعبـاء الكسب ، غير أنها عندئذ لا بد لها من التـوفيق ما بين رغبتها في العمـل والكسب المشروع غير الملزمة بـه ، وما بين واجب الأمـومة ورعـايـة البيت من أجل الحفاظ على كيـان الأسرة الـذي هو الكيـان الأساسي بالنسبة للمجتمع ، وإذا تهدم كيان الأسرة تهدم معه كيان المجتمع كله[2] .

★ تزيين النساء .

(١) يحيى عبد الله المعلمي، مرجع سابق، ص ١١٢ .

(٢) محمـد معـروف الدواليبي: المرأة في الإسلام، دار النفـائس ، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٤٧ .

٤- ويأتي الجهاد ذروة سنام العمل كله :

ومعروف أن الجهاد أمر صعب وخطير من حيث ما يتطلبه من قوة جسدية ، ومن جلد ، ومن صبر ومعاناة ، وما يحتاجه من تدريب قاسي ، وما ينتج عنه من قتل وإصابات وتقطيع أوصال . . . الخ ومن هنا كان الرجال هم الذين يطيقونه ويتحملون مآسيه ، ورغم ذلك فلم يمنع الإسلام العظيم المرأة من المشاركة فيه بالأعمال التي تتحملها وتطيقها حسب طبيعتها . ولنقرأ قصة مجاهدة من الرعيل الأول من المسلمات ، وقد جاهدت في البحر . . . !!

« عن أم حزام قالت : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان يزورني كلما ذهب إلى قباء ، فنام ذات يوم في بيتي ، ثم استيقظ وهو يضحك ، وقال : عرض على أناس من أمتى يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة ، فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال أنت من الأولين ، فركبت أول أسطول عربي في البحر المتوسط (بحر الروم) . (١)

هذا ولقد أباح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خدمة المرأة في الجهاد ، خاصة في التمريض ، ومداواة المجروحين ، وتوصيل الماء والطعام إلى المجاهدين ، وقد حدث هذا في عهده ، صلى الله عليه وسلم ، حتى إن بعض أمهات المؤمنين كن في شرف معيته في بعض غزواته ، ومنهن « أم سلمة » في غزوة خيبر وفتح مكة ، و « ميمونة » في فتح مكه ، و« عائشة » (مع أم سلمة) في غزوة بني المصطلق ، رضي الله عنهن ، وكانت « فاطمة » رضي الله عنها ، مع أبيها ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في غزوة أحد ، فلما كسرت رباعيته ، وشج وجهه الشريف ، جاءت فاطمة ، رضى الله عنها ، فغسلت عنه الدماء ، وكان على بن أبي طالب ،

(١) عبد المتعال محمد الجبري ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

رضي الله عنه ، يسكب الماء . [1]

ولم تتخلف نساء المهاجرين والأنصار عن القيام بما قامت به أمهات المؤمنين، فكن يذهبن إلى الميدان ويقمن بما كان في استطاعتهن من الخدمات ومساعدة المجاهدين ، وقد سجل تاريخ الدعوة الإسلامية أسماء عدد لا بأس به منهن في هذا المجال ، منهن «أم سليم» ، « أم عطية » فقد روى الإمام مسلم عن أم عطية (نفسها) رضى الله عنها أنها قالت : غزوت مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سبع غزوات أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضى .

كذلك ومنهن « رفيدة » ، رضى الله عنها ، والتي كانت لها خيمة مخصوصة تقوم فيها متطوعة بمداواة الجرحى في غزوة الأحزاب ، حتى إنه لما جرح سعد بن معاذ ، رضى الله عنه ، أمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، بحمله إلى خيمتها : « اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب » . ومنهن « عاتكة بنت عبد المطلب » ، رضى الله عنها والتي كانت مع ابنها عبد الله ابن أمية المخزومي ، بين الجيش الإسلامي الذي حاصر الطائف عام ٥٨هـ ، وقد نالت الشهادة مع اثنى عشر رجلا من المسلمين هناك، كما روي ابن الأثير. [2]

ويقول « العسال » في هذا المجال « وقد حفظ لنا تاريخ الدعوة الأولى دور خديجة أم المؤمنين ، وسمية أول شهيدة في الإسلام ، وغيرها . . وسجل القرآن بيعة النساء ، وقصة المهاجرات (الممتحنة) ، وخروجهن للغزو والجهاد ، قال البخاري: (باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال) ، وروي عن إحدى الصحابيات قالت : « كنا نغزو مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، نسقي القوم ،

(١) مبشر الطرزي الحسيني، مرجع سابق، ص ١٠٩ .
(٢) المرجع السابق، ص ص ١١٠-١١١ .

ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة [1].

وكان نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، أصحابه، رضي الله عنهم، يخرجن في الغزوات مع الرجال، يسقين الماء ويجهزن الطعام ويضمدن الجراح، ويحرضن على القتال، وقد ثبت في الصحيحين: أن عائشة زوج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كانت تحمل قرب الماء هي وأم سليم وغيرها إلى الجرحى في غزوة أحد يسقينهم، ويغسلن جراحهم. [2]

ونختم هذا الجانب المشرق الذي رفع فيه الإسلام مكانة المرأة بعبارات للأستاذ البهي الخولي، حيث كتب عن المرأة المسلمة التي تخرجت من جامعة الإسلام: «لعلها كانت المرأة الوحيدة في تاريخ الدنيا التي كان اهتمامها بالشؤون العامة لا يقل - إن لم يزد - عن اهتماما بشؤونها الخاصة، وهو اهتمام مشاركة واندماج تجاوبت به مع ما كان ينزل به الوحي من شؤون الدنيا والدين.. والأسرة والمجتمع... والحرب والسلم... وقيم الروح والحس. ولا يستطيع أشد الناس جحودا أن ينكر شجاعتها وأريحيتها في ظروف الحرب، إذ كانت تقدم رجلها والشباب من فلذات كبدها في احتساب وفداء، ومعهم ما تستطيع من حلي ومال، وهي من وراء ذلك تخدم الجيش، وتؤدي له مهمة الهلال الأحمر، في الإسعاف والتمريض، والمداواة للجرحى [3].

(١) أحمد محمد العسال: الإسلام وبناء المجتمع، دار القلم، الكويت، ط١٨، بدون تاريخ، ص ١٧١.

(٢) محمد رشيد رضا: حقوق النساء في الإسلام.. نداء للجنس اللطيف، دار الهجرة، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ص ص ١٣-١٤.

(٣) البهي الخولي: الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، دار القلم، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٣٣.

5- وارتفعت مكانتها الى عنان السماء بعملها السياسي .. يوم وقفت في وجه حاكم ظالم :

ونعني بها هنا سيدة مسلمة ، شرفها الله - جل وعلا - بالإسلام، فشرفّت تاريخ النساء بالعالم كله ، بل التاريخ البشري كله . . رجالا ونساءً ، دون أدنى مبالغة أو تزيد .

إنها أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنها ، والتي سمَّاها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، « ذات النطاقين » منذ كانت تجاهد في سبيل الله ، مخاطرة بحياتها، وهي تحمل الطعام والأخبار للنبي الكريم ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، حين كان مختبئاً في الغار ، ومعه الصديق ، رضى الله عنه ، وكانت قد شقت نطاقها لتحمل ما كان معها من طعام ، فأطلق عليها المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، ذلك اللقب الحبيب .

هذه السيدة المجاهدة العظيمة ، زوج الزبير بن العوام ، رضى الله عنه ، الصحابي الجليل ، وأحد المبشرين بالجنة ، وقفت خلف ابنها عبد الله الذي قاوم حكم بني أمية ، في المدينة المنورة ، حتى نفذت مؤونته ، ونقص عدد أصحابه ، ولم يبق معه إلا النفر القليل ، بينما عدوه « الحجاج بن يوسف » يحاصر مكة المكرمة ويقذفها بالمحروقات ، ونفذ السلاح ، ونفذت المؤونة ، وبدا واضحا أن النهاية وشيكة فذهب إلى أمه السيدة أسماء ، رضى الله عنها ، يستأنس برأيها، وكانت قد طعنت في السن ، وأصيب بصرها ، ولنقرأ :

« حوصر ابنها عبد الله في مكة فخذله الناس ، حتى أهله وولده ، وعرض عليه بنو أمية الأمان . . . والولاية . . . والمال ، فذهب إليها يعرض عليها أمره ، وهو يقول : « لم يبق معي إلا اليسير ، ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من

النهار ، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك . . . ؟

فما ضعفت من الهول ضعف النســاء ، ولا ضعف الأمهـات ، وإن الأبطـال الصناديد ليضعفون في مكانها ، فلا يعدمون المعذرة الناهضة ، والشفاعة المقبولة ، بل ملكت جأشها ، وملّكته جأشه ، وأقبلت عليه تقول :

« ياولدي . . . إن كنت على حق تـدعو إليه ، فامض عليـه ، فقد قتل عليه أصحـابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أميـة فيتلعبـوا بك ، وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هـذا من فعل الأحرار ، ولا فعل من فيـه خير . كم خلودك في الـدنيـا . . ؟ القتل أحسن ما يقنع بـه يـاابن الزبير، واللـه لضربة بسيف في عز أحب إليَّ من ضربة بسوط في ذل . . . ! !

والتفتت المؤمنة العظيمة تدعو الله ، كأنما تناجي نفسها : « اللهم ارحم طول ذلك النحيب ، والظمأ في هـواجر المدينة ومكـة ، وبره بأمـه ، اللهم إني قد سلّمت فيه لأمرك ، ورضيت فيه بقضائك ، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين» .

يقـول «العقاد» في هـذه العبـارات التي صنعت صـاحبتها جـزءا من التـاريخ الإسلامـي المشرف لكل أم مسلمة : « مقـالة أم جاوزت المائة ، واصطلحـت عليها الملمات ، وكف بصرها من الحزن ، ويئست من نصرة ابنها ، ومن حياته في جهاده ، فناهضت من السن . . . والمرض . . . والخوف . . والثقل ، في أحرج الساعات ما تنوء به عزائم الأفيال ، وتنهد له أركان الجبال . (١)

ثم غلب القوم ابنهـا المقدام فصلبـوه ، ورفعوا جثتـه للتمثيل والتشهير ، فألمها أن يصاب في كرامـة موته . كما ألمها من قبل أن يصاب في كرامـة حياته . وذهبت الى الحجاج تسألـه في ذلك سؤال الأعـزاء . فقادها الـدليل إليه حتى وقفت على مقـربة

(١) عباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق ، مرجع سابق ، ص ١٨٢ .

منه تقـول : أماآن لهذا أن ينـزل . . ؟ قال في غير رفق ولا حيـاء : المنافـق؟ فما أهمها وهـو صاحب طلبتهـا أن يجيبها أو لا يجيبهـا ، وإنما همها أن تـدفع عن ولدهـا ، وأن تجزى الشاتم بشتمه ، وقالت مغضبـة : والله ما كان منافقا ، والله مـا كان منافقا ، وقد كان صواما قواما . . » .

فعـاجلهـا مغيظـا من ردهـا عليـه : اذهبي فإنـك عجـوز قـد خـرفت . . . . . قـالت : لا والله مـا خـرفت ، وقد سمعت رسـول اللـه ، صلى الله عليـه وسلم ، يقـول : يخرج من ثقيف كذاب ومبير(مهلك) . ، فـأما الكـذاب فرأينـاه (تقصد مسيلمة الكذاب) ، وأما المبير فهو أنت .

وهـذه هي الأم التي يشرف بها الأبنـاء والآبـاء ، وتشرف بها سلالـة آدم وحـواء . . . هذه أسماء بنت أبي بكر .[1]

ولعمـري . . . أيـة مكـانة . . . اجتماعيـة وسيـاسيـة . . . ، وقيميـة . . . . وخلقية ارتفعت إليها هـذه السيدة المؤمنة العظيمة ، بل أي مكانة أخـذت بيد بنات جنسها معهـا ، كي يتربعن فيها مفتخرات بـدين تخّرج مدرستـه العظمى مثل هذه السيدة . . ؟؟!!

هل هنـاك مـدرسة . . أو جـامعـة . . . على وجه الأرض ، وبـامتـداد سني التاريـخ . . . يمكن أن تضمن مناهجهـا ، وخطط دراساتها أموراً يمكـن أن يعلمها مدرسـوها وأساتذتها لطـلابها فتخرج منها واحـدة . . . واحدة فقط . . . تقترب من ذات النطاقين . . . بنت الصديق ، في :

إيمانها . . !!

ويقينها . . !!

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٨٢ -١٨٣ .

واحتسابها . . !!

وصبرها . . !!

وثاقب بصرها . . !!

وقوتها . . !!

وصلابتها . . !!

وحفظها . . !!

وعزتها . . !!

وردها على حاكم ظالم قتل ولدها . . !!

اللهم لا عز إلا بالإسلام .

ولا مكانة إلا بالإسلام .

ولا فخر إلا بالإسلام .